إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها فى ضيعة ضئيلة الشأن ، تكاد تنتهى بها تخوم العمران . . .

كانت الحياة فى هذه الضيعة تجرى على الأساليب العتيقة فى الفلاحة والادارة ، بيد أنها مع ذلك كانت قنوعاً بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان .

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلوها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج مودة و إيلاف . فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام . . .

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأب من بنيه ، يضمر لهم الحنان والمرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم فى عدل و إنصاف . . .

وهو على الرغم من علو سنه جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز فى مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة . . .

فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته فى أمره ونهيه .

نهض الناظر بواجب منصبه معولا على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ، فاذا رغب فى عون دعا إليه ارتجالا بعض الرفاق ، فيبتدرونه ويعينونه فى غير كلفة ولا تعقيد . . . ومن ثم كان فى غنية عن موظفين تناط بهم أعمال

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، و يردد كلمته الخالدة :

— كل شئ يجرى بالبركة !

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة فى شيوع الامن واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة فى عهد ذلك الناظر المبارك .

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه فى ذهلة ووجوم ، ولكنها استلهمت فى رزئها الكبير إيمانها العميق ، وودعت بموت هذا الناظر عهداً مذكوراً بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد لا تدرى مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام !

وصبحاً هبط الضيعة شاب فى ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الافرنجية ، ويحمل على رأسه القبعة المجنحة . . . فاقبل مفتول الساعد ، مرفوع الهامة ، مزهو الخطا ، مدلا بما يتميز به عن هؤلاء الناس من كسب العلم والتحضر ، فى يده سوط صغير يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال . . .

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد !

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم ، يتفحصونه فى دهشة وعجب . . . ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر فى أذهانهم أن الناظر لا بد أن يكون على غراره : شيخ أشيب ، يعم على لده ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فما بال هذا الفتى الأمرد يدّعى ما ليس له بأهل ؟

وفرقع الناظر الحديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :

— أين حضرة المعاون ؟

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . .

فاستأنف الناظر صيحته النكراء قائلا :

— أقول لكم أين حضرة المعاون ؟

فتعالى همس القوم فى حيره وتعجب . . .

وبعد لأى برز من بين الصفوف شيخ يخب فى زعبوطه ، ورأسه يتطامن تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المتغضن يقول .

— ليس لدينا معاون !

فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :

— ماذا تقول ؟ أضيعة بلا معاون ؟

فأجابه الشيخ ركين اللهجة :

ـ عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب !

فارتفعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرقع ثانية بسوطه ، قائلا :

ـ علىَّ بأمين المخازن . . .

فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه ، قائلا :

ـ وهذا أيضاً لا وجود له !

ـ أتزعمون أنكم لا تعرفون رجلا له هذا اللقب أيضاً ؟

ـ صدِّق أننا لا نعرف له من وجود !

فاحتقن وجه الشاب ، وصاح فى صوت الثائر المحنق .

ـ ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ أتدَّعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟

فشخص الشيخ ببصره ، قائلا :

ـ هون عليك يا بنى . . . فى الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت فى حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ إنها أمانة عندى . . .

ـ وأنت . . . من تكون ؟

ـ أنا شيخ الجامع .

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

ـ ما شاء الله كان ! . . . مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع . . . هاتها يا رجل !

فانصرف الشيخ ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الارض جيئة وذهوبا ، وهو يتلفت حوله تلفت المتعض المشمئز ، وجعل يغمغم .

ـ فوضى ! . . . فوضى ! . . . يبدو لى أنه لا بد أن أنشئ الضيعه إنشاء جديداً . . .

ثم صاح بالجمع قائلا :

ـ أليس فى الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟ ألم يكن للصيعة كاتب ؟

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

ـ كان المرحوم يدعونى أحياناً لأقيد له بعض حساب الضيعة . . .

فجأر الناظر يقول فى تهكم :

— الحمد لله . . . وجدنا أخيراً من نسأله !

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشزر ، ثم أشار إليه قائلا :

— تقدمنى إلى الادارة نتصفح الدفاتر . . .

وهناك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفّا عليه بعض الأوراق والدفاتر تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ، ولبث واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف النظرات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء . . .

وبينا هو كذلك إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقهاً :

— مفاتيح من خشب ؟ . . . فى اى زمن تعيشون ؟

وازورّ ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :

— سترى الضيعة عجباً . . . لأنقلنها من عهد ضلالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور . . .

وعلا بيده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :

— علىّ بشيخ الخفر . .

فطأطأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما . . .

ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر ، وقد بلغت به الحيرة والعجب كل مبلغ :

— أتجسران على أن تدّعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟ حراس ؟

فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن تكسوه طمأنينة الايمان . . . ثم همس بقوله :

— الحارس هو الله !

ففرقع الناظر بسوطه فرقعة ريع لها الشيخان ، وبصق وبصقه هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق . .

اعتكف الناظر الجديد أياماً فى مثواه لا يريمه ، وهو منكب يدبج تقريراً مسهباً فى شان الضيعة وما تفتقر إليه من خطة الإصلاح ، انتشالا لها مما هى مترديه فيه من فوضى وخراب .

وقد ترادفت فى تقريره كلمات لم ير بدًّا من الإلحاح فى بيانها ، والاشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » ، و « تعيين جهات الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام . والضرب على أيدى من تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى طريق الاصلاح والتعمير . . .

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة فى العاصمة ، ونهض يستنشى نسيم الراحة والاستجمام ، كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ، لتحقيق أول خطوة فى خطة الاصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عنى به اختيار زى للخفراء الجدد يوفر لهم المهابة المنشودة ، و يميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختباراته السيكلوجية لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعاً من الفتيان توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخاً ، وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته التى يعتز بها وينزهها عن الزلل ، فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، و إنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب رأت فيه ما لم ير سائر الناس .

ووقف الناظر أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به:

— لقد اخترتك شيخاً للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . . إن الجندية أساسها الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش . . . وعلى كل أن يلزم حده ، وأن يعرف واجبه . . .

وفى اليوم التالى ، تجلى شيخ الخفر فى « الدوار » يزهو بلبدته التى حملت شارة الرياسة ، وفى يده هراوة صلبة فارعة ، كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر فى معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطا ، وخلفه شرذمة الخفراء ،

يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد . . .

وما إن توسط الخفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب ، وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف متهلل الوجه ، تتألق عيناه ، وصاح :

— انتباهاً !

وابتدأ معهم حصة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ، وتراءت السواعد تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما أثارته حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته فى الفضاء ، فتتردد أصداؤه فى الأرجاء ، إذ يقول :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— خطوة إلى الخلف .

— أربعات تشكيل .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره قد عششت على حافاتها زمر من الصبية تتطلع ، وقد بهرها ما ترى من منظر عجيب !

لبث الناظر يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الخفر يواصل العمل على النحو المرسوم . . . وانصرم النهار وشيخ الخفر مجد فى تدريب فرقته ، لا تهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت .

وراح إلى داره فى غيوب الشمس ، متشقق الحلق من متابعة الضجيج والصياح ، منهوك القوى تكاد تنفصم ركبتاه من طول الانثناء والدوران . . . ولكنه على الرغم من ذلك أقبل على الدار مشرئبا ملتمع العين ، فاستقبلته زوجه ، والتف حوله بنوه يتحسسون معطفه ، ويتواثبون عليه تطلعاً إلى لبدته ذات الشارة الحمراء !

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية أساسها الطاعة والنظام . . . وما لبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات

صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد . . . وجعل يدس فى أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التى صافحت سمعه أول مرة فى هذا اليوم ، من مثل : « أربعات تشكيل ، خطوة إلى الخلف ، تعظيم سلام » . . . فكانت أسرته تصغى إليه فى نشوة ، والعيون إليه رانية !

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع ، مفترشين الحصير ، أبى رب الدار إلا أن يحضروا له مقعداً يرتفع به عن أديم الأرض ! . . .

استنفد تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد . . .

وكان لايسير فى الضيعة أو يجوس خلال الحقول إلا مستصحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفو خطاه .

فأما شيخ الخفر فظل يتلقى تعاليم الناظر فى شأن مهمته ، وينهمك فى تنفيذها بين مرءوسيه فى همة ومضاء . فاذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره ، أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، و يرى الصبية لا يكادون يلمحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق !

ويوماً وهو يدرب فرقته ، لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز فى تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عوداً ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له فى القول ، وما هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك .

و انتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتضاربين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير فصلا مشمولا بالنفاذ ، لأنه خالف أول مادة فى قانون الجندية ، وهى الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . .

وتقدم إلى الصف ، فانتزع الخفير منه ، وجرّده من شارة الخفارة ومن زيها الرسمى ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته ، وينزع منه ما معه من السلاح !

مضى الخفير الطريد مهيض الجناح ، يتضرم قلبه حقداً وضغينة . وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ، ويخوضون فى حادثة النهار ، فقال أحدهم :

ــ ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحداً منا . . .

فأجابه رفيق له :

— ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة . . .

فصاح ثالث :

— مهما يكن من أمر ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقة الله . . .

فقال الأول :

— الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة . . .

فقال الثانى :

— حقا خدع الناظر فى شأنه ، وسينتبه إلى خطئه فى اختياره . . .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضنيناً :

— لا تنسوا أن راتب شيخ الخفر ضعف راتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمح الجمع شبحاً فى الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصه ، فاذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس . . .

تقضت أيام لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه ظلامة ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام تحت ستار من الأسرار . . .

وتواصل العمل فى تدريب الخفراء بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الاهانات من ركل وصفع وطرد ، يسخو بها على مرءوسيه فى تجن وتقوّل وادعاء ، واجداً من ناظر الضيعة ظهيراً يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصداً لطلاب الشفاعات فى شئون الضيعة وما يتصل بادارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والاتحافات من خيرات الريف ! . . .

ومرة عنف الناظر بشيخ الخفر ، فى بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت عليه بوادر التنمر ، ونسى فى غشية الزهو والسلطة أنه بين يدى رئيسه ، وتضاءلت فى مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية .

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر إلى جفوة تطاير غبارها وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصابح الناظر وتماسيه ، مهيبة به أن يضع حدا لذلك الجبار العنيد الذى عاث فى الضيعة فساداً .

وفكر الناظر فى أمر شيخ الخفر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب . . .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته ، متنفخاً فى جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع يرح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة فى الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه .

وبدت السين والجيم تتقاذف بهما الألسن فى تلك الحجرة المعتمة المتهدمة التى يكاد سقفها يخر ، وقد وقف المتهم يحاصره جمع من الشهود . . .

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقد اختنق الحو بالأنفاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشمر كميه ، وهو منخرط فى عمله يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى اشتاتاً من الأوامر والنواهى فى حمية وحماسة . . .

وأخيراً رأى رئيس الجلسة أن يختلى بنفسه ، ليصدر حكمه فى قضية اليوم ، فأمر باخلاء المكان . . .

وبعد هنيهة أذن للجمع فى الحضور ، لاعلان الحكم ، فاغتصت الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها يسدون منافذها ويرهفون الأسماع .

وما هى إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة فى يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن . . . » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر وإلزامه دفع غرامة جسيمة . . .

فدوّت فى الحجرة ضجة عارمة ، وتعالت أصوات تهتف بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض !

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقال ، ويتلاعب بسوطه فى اهتياج ، وقصد إلى منزله مزهو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتمى عليه منسرق القوى .

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث فى شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ،

فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات فى مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى ، وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرفت الضيعة مكانته وأثره فى التسلط والاغتنام .

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب فى مساترة وحذر .

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة فى جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس فى رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت مرتقبين مهبط الناظر ليروا ماذا بيت من رأى فى اختيار شيخ الخفر الجديد . فما إن لمحوه مقبلا حتى تكأكأت عليه الجموع تستخبره فى تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محتفظاً بالسر العظيم !

وقصد الحجرة التى كانت أمس محكمة الفصل فى قضية شيخ الخفر ، وهنالك أعلن على الملأ أنه قد تخير الخفير الطريد شيخاً للخفر ، فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً هضم حقه الشيخ المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الادارة فى عهد ناظر الضيعة الجديد ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه ؛ فما كان فى حسبان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذى طرد من قبل . . . ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعاً . . .

وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة . . . وسرعان ماشهدت ساحة « الدوار » ثانية جمع الخفراء يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

— إلى اليمين در .

— الى الأمام سر .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئ بالتحية يمنة ويسرة لمن وقفوا له ؛ وما كاد يلج باب الدار حتى استقبلته حشود من القصاد يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنئة والدعاء .

وتواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات والاهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ممن كان يطغى عليهم الشيخ الأول إبان حوله وطوله .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد ، فتراءت فى بيته أنعم طارئة ، وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ، يجتذب بلألائه النواظر ؛ فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع ... وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتغريق الحقول . وما إلى ذلك من ضروب الكيد والايذاء . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهام ، تمس شيخ الخفر وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال يتصفح تلك العرائض ، ويذيلها بملاحظاته وتقريراته ، مجتهداً فى الموازنة والتأويل والاستخراج . . .

واستيقظت الفتنة فى قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يكيد بعضهم لبعض . فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبته ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وحبك للمكايد ، وتأليب لنفر على نفر ، حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصى الأمور . . .

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ، فضاعف عدد الخفراء ، وظهر فى الملأ يحمل إلى جنبه غدارة ضخمة ، يكف بها خائنة العيون !

وكان فى كل فرصة تلوح له ، يؤكد أنه لن يألو جهداً فى إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا فى ظلال الأمن والسلام !

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ؛ إذ أنهى إليه بعض

الخفراء أن سطوا وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصرائه !

وما إن أتم الخفير قوله ، حتى سمعت ضجة عنيفة ، وتضارب بالعصى لغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء فى ولولة وتصايح وانتحاب .

فأسرع الناظر يرتدى ملابسه ، وهرول إلى مساكن الضيعة ، فألفى الثورة فى عنفوانها ، والمعركة تدور رحاها حامية الوطيس . فاقتحم الزحام فى جرأة وإقدام ، وراح يزأر بصوته ينهى ويأمر . فلم يعبأ به أحد ، وذاب صوته فى حرارة العراك والمطاحنه ، وأراد أن يستنجد بغدارته فما كاد يمسكها فى يده حتى وجدها قد افلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط !

وأحس الجماهير تعتصره وتضغطه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته فى حلقه ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغاً له ، كل منهم بنصيبه فى المشاجرة مشغول . وضاقت به وجوه الحيلة ، فتراجع نجاء بنفسه مما لا تحمد عقباه ، فادا به عن كثب من فئة تتضارب بالهراوات فى عنف وهوج . وما هى إلا أن اندمج فى هذه الفئة ، وقد تعاورته الضربات فخر مثخناً بالجراح .

وفى مرتفع النهار ، شمل الضعة خمود وتخاذل وانهيار . . . ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها طحنتهم المعركة وأدمت أوصالهم ، فهم يلمسون شعثهم ويعالجون جراحاتهم . . . وثمة أمتعة مبعثرة أمام الدور ، وأنقاض ماتهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب متشممة فى خوف وحذر . . .

وفى صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يجوب الضيعة ، مستعيذاً بالله ، ملتمساً منه اللطف فى قضائه . . . وكان يمر بالدور لماماً يعود طريحاً أو يواسى جريحاً ، ويهدئ ثائراً أو يشاور دا راى من الأشياخ . . .

وأدى به المطاف الى ادارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فاذا هى هى تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

— أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد !

محمود تيمور